

## عصر ملوك الطوائف

تتبعه الأمويون إلى طبيعة بنية المجتمع الأندلسي المتعدد الأعراق والأديان، وهي طبيعة تتفق مع الطبيعة الجغرافية الشديدة الوعورة كثيرة الفواصل من جبال ووديان وأنهار. فما زالت إسبانيا تقسم نفسها إلى أقطار وشعوب لم يوحد بينها الدين الواحد، ولم تتخل كل أمة عن لغتها وخصائصها الوطنية في ظل حكومات فيدرالية أو لغة رسمية سائدة.

أدرك الأمويون وجود أسر ذات هيمنة معنوية وروحية ومادية على مناطق بعينها، وقد تحققت هذه الهيمنة لتلك الأسر لفضائلها ومروعتها المتوارثة بجانب عناصر النبالة في النسب وفي السلوك، والتصرف بمسئولية تجاه القضايا العامة. اجتمع الأندلسيون - على تعددهم العرقي والقبلي والديني - حول تلك الأسر. من هنا، كانت حنكة الأمويين باصطناع تلك الأسر، واختيار الوزراء منها، ورجالات الحاشية والبلاط، ثم منحها النفوذ والإقطاعات. وقد ضمنت تلك الأسر أكبر قدر ممكن من فرض الهدوء والسلام والولاء للأمويين.

وقد سيطر نظام الأسر هذا حتى على الأدب، فها هو ابن شهيد يورد أشعار أسرته في التوابع والزوابع، وها هو ابن سعيد يقدم لنا أسرته الحاكمة تبني كتابا في تاريخ الأدب لعدة أجيال : وهو كتاب المغرب، والذي أيضا نرى فيه شعراء أسرة آل سعيد.

ويظل نظام الأسر سندا للدولة الأموية ولوحدة الأندلس في ظل البيت الأموي، ولعل بعض ما كتبه ابن الجنان على لسان ابن هود (النفح ٧) يكشف عن دور هذه

الأسر، واختلافهم عن عامة الناس "فكل امرئ بشأته مشغول وعن خُوَيْصَة نفسه مسئول" أما الأسرة فزعيمها وأهله : "ونحن بما استرعانا الله مشغولون، وعن الكبير والصغير مسئولون.. فعيننا تسهر لتنام للرعية عيونهم وتحركنا يتصل ليحصل لهم سكونهم... لا نقر فيهم ظلما ولا هضما..".

ومثله ما يحدثنا به شعراً ذو الوزارتين الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الغفور (صاحب ملك الطوائف الأعظم المعتمد بن عباد)، وذلك عن أسرة من أسر إشبيلية تحمل لقباً أندلسياً أصيلاً، ويبدو من هذا اللقب أن أصلهم من مدريد (قرية مجريط) التي يحمل علمها وشعارها إلى اليوم لقب تلك الأسرة "الذُب" :

إن جهلتَ الوفاء في أهل حمص	فبنو الذُّب سادة زعماء
فيهم عفة وفيهم وفاء	ولهم ذمة وفيهم حياء
وزراء أكابر كرماء	علماء أفاضل حلما
أى قوم وأى أعلام مجيد	أنجبتهم إلى العلا آباء
يفخر الدهر منهم بأناس	ليس إلا لهم يد بيضاء

ولعل النص النثرى والشعري معا يحددان لك مجموعة القيم التي تتميز بها الأسرة النبيلة في الأندلس.

ويشاء القدر أن يدرك رجل (لا ينتمى إلى واحدة من تلك الأسر) قرب نهاية الخليفة الأموي الأخير بين عظماء حكام بنى أمية، فيمكن لنفسه بأدنا لاسبل (التقرب لزوجة الخليفة في لحظات مرضه وضعفه)، ولا سيما أن الخليفة يموت عن ولى عهد

طفل.. وهكذا يستولى المنصور بن أبى عامر على السلطة باسم ولى العهد الذى صار خليفة طفلا لا حول له ولا قوة، ومع ذلك ظل يوقع بفضل الوصية عليه (أمه عاشقة المنصور) المراسيم التى تعطى أقصى السلطات للحاجب المنصور الذى حمل لقب "الملك".

وهكذا يمضى المنصور ومن بعده ولداه فى حكم وراثى ديكتاتورى يخلو من أى رحمة فى اعتماد على جيش قوى طائفى معظمه من البربر والصقالبة، وقد كان يغزو غزوتين كل عام. ولم يهزم فى غزوة قط ليثير الفزع فى الشمال الإيبانى كما أثاره فى قرطبة. ولم تكن غزواته إلا لنيل إعجاب المسلمين بجهاده، لأنه لم يتوسع بل كان يخرق أرض الشماليين الإيبان ليقتل ويسبى ويجمع الغنائم والأموال. حقا لقد حمى حدود الأندلس، لكنه حطمه من الداخل بديكتاتوريته التى قتلت الحرية والإبداع، وبقضائه على الخلافة التى صارت أشبه بمسرح هزلى لعبث هذا الحاجب القوى الشخصية، ثم بتدمير الأسر النبيلة التى أدت إلى مجتمع متماسك فى ظل التعدد وفى ظل شئ من الديمقراطية، ليتحول المجتمع إلى مجتمع الخوف لا أكثر. من ثم، بانتهاء الخوف فى ظل الابن الأصغر (شنجول) للمنصور انهارت الدولة الأموية (التي صارت فى آخرها عامرية). شنجول أحرق التصرفات يواجهه أمير أموى عاش عمره مع قطاع الطرق والعصابات وبين الرجلين ينتهى الحكم العامرى والأموى معا فى سلسلة من الفتن التى دمّرت قرطبة.

ومع ذلك ينقذ الموقف بقايا الأسر القديمة التى لم تظلمها يد العامريين بالإفناء والتدمير، فتنشأ مجموعة من الممالك على نمط ايبيرى، وبجانب الأسر يحكم هنا أو هناك مؤقتا بعض فتيان العامريين (مواليهم) من الصقالبة. إن ممالك الطوائف فى

الأندلس الإسلامي تقابلها ممالك طوائف فى الشمال المسيحى الإسبانى. لم يعد لملوك الطوائف من أمجاد سوى الأمجاد التى وصف بها آخر خليفة أموى عظيم : الحكم المستنصر : إنه احتضان العلم والأدب.

وهكذا يزدهر النثر والشعر والموسيقى، وتصدح فى سماء الأندلس أغنيات ألقى الموشحات التى دخلت فى طور جديد، كما أن حرية التنقل من ملك إلى ملك، أعطى الشعراء نقلا ومعهم العلماء، حيث يتشاجر على صحبتهم الملوك، بل إن أحد الملوك (المأمون بن ذى النون) يعطى لنفسه لقب المأمون تشبها بالمأمون العباسى الذى احتضن العلماء وأنشأ دار الحكمة. أما المظفر ابن الأفطس فى بطليوس، فقد شغل نفسه بتأليف موسوعة تضاربت الأنباء عن أنها بين ٥٠-١٠٠ مجلد، وهى تحتوى على كثير من الأخبار والسير والنبذ المختارة والطرائف والغرائب والنوادر اللغوية والأشعار. هذا الكتاب "المظفرى" للأسف لم يصلنا. والمتوكل بن الأفطس ابنه ملك عظيم لكنه ناقد شعرى وشاعر، ولعله تعلم من والده المظفر الذى كان يقول "من لم يكن شعره مثل شعر المتنبى أو المعرى فليسكت" تحول بلاط بطليوس مملكة بنى الأفطس إلى جامعة تنافس بلاط المأمون بن ذى النون، لكن الجميع لم يقدر على منافسة الملك الشاعر المعتمد بن عباد الذى تحول بلاطه فى إشبيلية إلى خلية نحل، نحلاتها شعراء، وعسلها الشعر، وغذاؤها الملكى شعر المعتمد وفروسيته وهمته وكرمه.

يمكن أن نقارن ممالك الطوائف فى تشجيع الأدب والفن بالمدن الإيطالية عشية النهضة، لكن ليس على المستوى السياسى والعسكرى، فالعدو الشمالى يستهض أوروبا المسيحية كلها فى مواجهة الجنوب الأندلسى الإسلامى، فلجأ ملوك الطوائف إلى دولة بربرية قوية عسكريا فى المغرب هى دولة المرابطين، التى انتهزت دعوة ملوك

الضوائف لها، لتستولى على الأندلس وينتهي عصر الحرية التي عاشها الشعراء الأندلسيون في عصر ملوك الطوائف. لقد فجغ الشعراء بسقوط الملوك، وظلوا يبكونهم ربما مئات السنين متخزين من قبر ابن عباد رمزا لهذا العصر الزاهر لهم وللشعر والفن والفكر والعلم. المعتمد بن عباد كانت حياته شعرا دراميا بنهاية تراجيدية. واقع درامي أحسن بن ابن عباد، فأوما بأن يكتبوا على قبره :

قبر الغريب سقاك الراح الغادى	حقاً، ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا	بالخصب إن أجد بوابا بالرّى للصادى
نعم. هو الحق واقانى به قدرُ	من السماء وواقانى لميعادى

ولنسمع بيتى شعر فقط من قصيدة طويلة لابن اللبان يرثى بها مملكة آل عباد ورحيلهم :

حان الوداعُ فضجت كل صارخة	وصارخ من مفدأة ومن فاد
سارت سفانتهم والنوح يصحبها	كانها إبل يحدو بها الحادى

انتهى عصر الحب والشعر، وذلك اللقاء الحميم عند الشعراء بين الطبيعة والعمارة، وبين المتزهات والمغامرات الغرامية الرومانسية. جو من السحر يتحد الإنسان فيه مع الطبيعة فيرق قلبه للحب، ويعزف لسانه ألحان الشعر مال الشعر الأندلسى فى هذه المرحلة نحو المقطوعة (القصيدة القصيرة) ذات الحس المرح، والسرد القصصى، ومحاولة خلق عقد قصصية يؤدي انفراجها إلى نهاية المقطوعة، وإدهاش المتلقى وإبهاجه.